# الفصل الأول

## العبادات وأثرها
## فى تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق

- أولا : الصـــــلاة
- ثانيا : الزكـــــاة
- ثالثا : الصيـــــام
- رابعا : الحـــــج

obeikandl.com

obeikandl.com

# أولا : الصـــــلاة

● **الحكمة من توزيع الصلوات على اليوم والليلة:**

لعل الحكمة التى من أجلها جعل الله – عز وجل – الصلوات الخمس موزعةً على اليوم والليلة، ولم يجعلها دفعةً واحدة فى جزء من الليل أو النهار، لعل الحكمة من ذلك أن يظل العبد على صلة دائمة بالله – عز وجل – فهو يصلى الصبح ثم يخرج لكسب رزقه، فربما وهو فى خضم الحياة يزل زلة أو يذنب ذنبًا، فتأتى بعد ذلك صلاة الظهر، يقف فيها العبد بين يدى الله – تعالى – مستشعرًا عظمة الله، فيركع ويسجد، ويستغفر، ويطلب من ربه العفو والصفح، ويجدد العهد مع الله، ثم يخرج إلى عمله، فتأتى صلاة العصر فيجدد العبد عهد الله عليه، ثم صلاة المغرب، ثم صلاة العشاء فيقف فيها العبد مختتمًا أعمال يومه مستغفرًا لذنبه منيبًا إلى ربه، ينام مغتسلاً من الذنوب.

ففى تكرار وقوف العبد بين يدى خالقه ومولاه؛ غسلٌ للقلب والجوارح من الذنوب.

فقد روى الطبرانى «عن عبد الله بن مسعود. رضى الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «تحترقون تحترقون فإذا صليتم الصبح غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها، ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا»[1].

**وروى البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى**

---

(١) رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط بإسناد حسن، وفى الكبير موقوفًا، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب، ومعنى تحترقون: تهلكون من كثرة الذنوب.

ﷺ قال: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، ما تقولون يبقى ذلك من دَرَنه شيئًا؟ قالوا: لا يبقى ذلك من درنه شيئًا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بها الخطايا».

وروى البخارى ومسلم – واللفظ لمسلم – عن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – أن رجلاً أصاب من امرأة قبلةً، فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له. قال: فنزلت: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

قال: فقال الرجل: ألىَ هذه يا رسول الله؟ قال: لمن عمل بها من أمتى.

(قال النووى – رحمه الله –: واختلفوا فى المراد بالحسنات هنا، فنقل الثعلبى أن أكثر المفسرين على أنها الصلوات الخمس).

* * *

## الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر

يقول الله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾

[العنكبوت: ٤٥]

تبين هذه الآية ثمرة الأمر بإقام الصلاة، وهى أنها من شأنها أن تروض النفس على ترك الفواحش، متى أقيمت بتمامها، بركوعها، وسجودها، وخشوعها، وطمأنينتها.

يقول صاحب الظلال – رحمه الله –: «إن الصلاة حين تقام تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهى إتصال بالله يخجل صاحبه، ويستحيى أن يصطحب معه كبائر الذنوب وفواحشها ليلقى بها، وهى تطهر وتجرد لا يتسق معها دنس الفحشاء والمنكر وثقلتهما».

ويقول ابن كثير – رحمه الله –: «وقال أبو العالية فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ

﴿الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ قال: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شئ من هذه الخلال فليست بصلاة؛ الإخلاص، والخشية، وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله؛ القرآن يأمره وينهاه».

ويقول الإمام ابن تيمية - رحمه الله -: «الصحيح أن معنى الآية؛ أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر: فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهى مشتملة على ذكر الله تعالى».

وفى الحديث: «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، وطاعة الصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر»(١).

ورُوى عن ابن عباس وابن مسعود - رضى الله عنهما - قالا: «فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله تعالى؛ فمن لم تأمره صلاته بالمعروف، ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً».

ورُوىَ - مرفوعًا - من حديث عمران بن حصين وابن عباس - رضى الله عنهما - «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً»(٢).

يقول القرطبى: «فالمعنى المقصود من الحديث إشارة إلى أن مرتكب الفحشاء والمنكر لا قَدْرَ لصلاته لغلبة المعاصى على صاحبها».

وروى الإمام أحمد - رحمه الله - من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: إن فلانًا يصلى بالليل فإذا أصبح سرق، فقال: إنه سينهاه ما تقول» أى أن محافظته على الصلوات ستجعله يتوب عن الموبقات.

---

(١) رواه ابن جرير عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً وموقوفاً والموقوف أصح.

(٢) رواه ابن جرير.

ومن ثَمَّ فالصلاة المقبولة هى التى تملأ القلب نوراً وخشية، فيتطهر القلب ثم يفيض النور على الجوارح فيكفها عن محارم الله تعالى.

فقد رُوى فى الحديث القدسى «إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى، ولم يستطل على خلقى، ولم يَبِتْ مصراً على معصيتى، وقطع النهار فى ذكرى، ورحم المسكين، وابن السبيل، والأرملة، ورحم المصاب ... ذلك نوره كنور الشمس أكلؤه بعزتى، وأستحفظه ملائكتى، أجعل له فى الظلمة نوراً، وفى الجهالة حلماً، ومثله فى خلقى كمثل الفردوس فى الجنة»[1].

* * *

(١) أخرجه البزار عن ابن عباس رضى الله عنهما.



obeikandl.com

# ثانيًا: الزكـــــاة

## ● الحكمة من الزكاة:

فـرض الله - عـز وجل - الزكـاة تطهـيـرًا لنفس المزكِّي من أمـراض الشح والبخل، والطمع والأثرة وغيرها، وتطهيرًا لنفس المزكَّى عليه من أمراض الحقد والحسد، والغل وسائر أمراض القلب، وتطهيرًا للمال بإخراج حق الله فيه.

يقول تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

## ● المن والأذى يبطلان مفعول الزكاة:

فإذا كانت الزكاة من شأنها أن تطهر نفس المزكِي، ونفس المزكَى عليه، فإن المن والأذى لا يزيدان كلا منهما إلا دنسًا.

يقول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

[البقرة: ٢٦٢]

فاشترطت الآية؛ لقبول الصدقة ألا تتبع بالمن والأذى.

والمن: أن يتحدث الإنسان بما أعطي حتى يبلغ ذلك المعطيَ له فيؤذيه.

يقول الله تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

[البقرة: ٢٦٣ - ٢٦٤]

« يقول صاحب الظلال - رحمه الله -: والمن عنصر كريه لئيم، وشعور خسيس واطٍ، فالنفس البشرية لاتمن بما أعطت إلا رغبة فى الاستعلاء الكاذب، أو رغبة فى إذلال الآخذ، أو رغبة فى لفت أنظار الناس، فالتوجه إذن للناس لا لله بالعطاء؛ وكلها مشاعر لا تجيش فى قلب طيب، ولا تخطر كذلك فى قلب مؤمن.

فالمن من ثَم يحيل الصدقة أذى للواهب وللآخذ سواء؛ أذى للواهب بما يثير فى نفسه من كبر وخيلاء، ورغبة فى رؤية أخيه ذليلاً له كسيراً لديه؛ وبما يملأ قلبه بالنفاق والرياء والبعد من الله.

وأذى للآخذ بما يثير فى نفسه من انكسار وانهزام، ومن رد فعل بالحقد والانتقام.

وما أراد الإسلام بالإنفاق مجرد سد الخلة، وملء البطن، وتلافى الحاجة ... كلا! إنما أراده تهذيباً وتزكية وتطهيراً لنفس المُعطى، واستجاشة لمشاعره الإنسانية وارتباطه بأخيه – الفقير– فى الله وفى الإنسانية، وتذكيراً له بنعمة الله عليه، وعهده معه فى هذه النعمة أن يأكل منها فى غير سرف ولا مخيلة، وأن ينفق منها فى سبيل الله فى غير منع ولا من.

كما أراده ترضيةً وتنديةً لنفس الآخذ، وتوثيقًا لصلته بأخيه فى الله وفى الإنسانية؛ وسداً لخلة الجماعة كلها، لتقوم على أساس من التكافل والتعاون يذكرها بوحدة قوامها، ووحدة حياتها ووحدة اتجاهها، ووحدة تكاليفها، والمن يذهب بهذا كله، ويحيل الإنفاق سمًا وناراً، فهو أذى فى ذاته يمحق الإنفاق، ويمزق المجتمع، ويثير السخائم والأحقاد».

● **الصدقة وصلة الرحم:**

ما فرضت الصدقة (الزكاة) إلا لتقوية روابط الجماعة، وتوثيق أواصرها؛ وأولى الناس بالإنسان هم أقاربه، لأن فى ذلك زكاة وصلة.

ففى الحديث الشريف «الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان صدقة وصلة» (١).

والصدقة على ذوى الأرحام تطهر بواطن الكاشحين منهم، وتطفئ نار العداوة فى دواخلهم (وذلك إذا لم تتبع بالمن والأذى).

وسألَ رجلٌ رسول الله – ﷺ – «أى الصدقة أفضل؟ قال: على ذى الرحم الكاشح» (٢).

---

(١) رواه أحمد والترمذى وقال: حديث حسن، والنسائى، وابن ماجة، والحاكم عن سلمان بن عامر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع، ورواه كذلك الدارمى.

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده وإسناده حسن، ورواه الدارمى عن حكيم بن حزام مرفوعًا. الكاشح: المضمر لعداوتك فى باطنه.

# ثالثا : الصيـــــام

● **حكمة الصيام :**

كما ذكرنا دور الصلاة فى تهذيب الأخلاق وتقويم السلوك، وعرفنا كيف أن الصلاة إذا لم تعمل على ذلك فلا فائدة منها، وكذلك الزكاة إذا لم يقصد بها وجه الله تعالى، ولم تؤد بلا مَن ولا أذى فإنها لا تحقق غرضها الأساسى ،وهو التطهير، وبالتالى لا تعمل على تهذيب الأخلاق وتقويم السلوك.

فكذلك الصيام له دور فى تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق ويكون ذلك بتحقيق معنى التقوى الذى أراده الله – سبحانه وتعالى – من افتراضه للصيام حيث يقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فالغرض هو تقوى الله – عز وجل – التى تعمر القلب فتصلحه وتقتل الدَغَلَ الذى فيه؛ فيفيض منه النور على جوارح الإنسان؛ فيهذب أخلاقه ويقوم سلوكه فإذا صام الإنسان صومًا صحيحًا جنى ثمرة ذلك وهى التقوى.

أما إذا أُدىَ الصيامُ ولم يكن له مردودٌ على القلب، ومن ثَمَّ على الأخلاق والسلوكيات فلا فائدة منه.

وإقرارًا لهذا المعنى قال رسول الله – ﷺ – : «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه» (١).

فالصيامُ الذى لا يكف صاحبَه عن قول الزور، وشهادة الزور، فلا فائدة منه، وقال – صلى الله عليه وسلم – أيضا : «ليس الصيام من الأكل والشرب إنما الصيام من اللغو والرفث فإن سابَّك أحد أو جهل عليك فقل إنى صائم» (٢). ويقول – ﷺ – أيضا : «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش» (٣).

---

(١) رواه البخارى وأبو داود والترمذى.

(٢) رواه ابن خزيمة.

(٣) رواه ابن ماجه وصححه الألبانى فى صحيح الجامع.

وقال بعض السلف: أهون الصيام ترك الشراب والطعام.

ورُوِىَ عن جابر – رضى الله عنه –: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب، ودع أذى الجار، وليكن عليك سكينة ووقار يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

ولله درُ القائل:

أهل الخصوصِ من الصوامِ صومهمُ
صونُ اللسانِ عن البهتانِ والكذبِ
والعارفون وأهلُ الأُنسِ صومهمُ
صونُ القلوبِ عن الأغيارِ والحجبِ

* * *

obeikandl.com

# رابعًا : الحـــــج

يحسب كثيرٌ من الناس أنه بمجرد الذهاب إلى الأراضى المقدسة، وأداء المناسك يكون بذلك قد حج حجًا مقبولاً! بصرف النظر عن الأخلاق والسلوك والمعاملات!

وهذا فهم خاطئ، وسلب لأسرار العبادات وأثرها؛ وإنما الحج المقبول هو ذلك الحج الذى يغسلٍ صاحبه من الذنوب والآثام، ولا يكون ذلك إلا إذا أحدث الحج فى النفس تغييرا انعكس على سلوكه وأخلاقه ومعاملاته؛ وهو ما سماه الرسول – صلى الله عليه وسلم – الحج المبرور. فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : سُئل رسول الله – ﷺ – أى الأعمال أفضل؟ قال : «إيمان بالله ورسوله. قيل ثم ماذا؟ قال : ثم جهادٌ فى سبيل الله. قيل ثم ماذا؟ قال : ثم حج مبرور» (١).

● **وإن من بر الحج :**

١ – ترك الرفث والفسوق والجدال : لقوله تعالى : ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ [البقرة : ١٩٧].

والرفث المقصود هنا هو الفاحش من القول، والفسوق هو العصيان.

وفى الحديث، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ : «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» (٢).

٢ – الإحسان إلى الناس بجميع الوجوه : فكما فى الحديث : أن النبى – ﷺ – : سُئل عن البر فقال : «حُسن الخلق» (٣).

وكان ابن عمر – رضى الله عنهما – يقول :

بنى إن البـــر شىءٌ هين      وجـــهٌ طليق ولســانٌ لين

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) رواه البخارى وغيره [ورواه أحمد فى مسنده جـ ٢٠ حديث رقم ١٠٢٧٩].

(٣) رواه مسلم.

٣ – ومن بر الحج أن يطيب العبد نفقته:

ولله در القائل:

إذا حـجـجـت بمالٍ سُـحتٍ فما حججت ولكن حجت العيرْ

لا يقـبـل الله إلا كل طيـبـةٍ ما كلٍ مَن حج بيت الله مـبـرورٌ

٤ – ومن بر الحج ألا يقصد العبدُ بحجه رياء ولا سمعة:

قال رجل لابن عمر – رضى الله عنهما – ما أكثرَ الحاج! فقال: ما أقلهم !!

وقيل: الركبُ كثيرٌ والحاجُ قليلٌ.

٥ – ومن بر الحج إطعام الطعام وإفشاء السلام:

فـقـد سُئل الرسـول – ﷺ – مـا بر الحج؟ قـال: «إطعـام الطعـام وإفـشـاء السلام» (١).

٦ – ومن بر الحج الزهد فى الدنيا:

قال الحسن – رحـمـه الله –: «بر الحج: أن يرجع زاهداً فى الدنيا راغبًا فى الآخرة».

٧ – قـال النووى – رحـمـه الله –: «الأصح الأشـهـر أن المبـرور هو الذى لا يخالطه إثم، مأخوذ من البر وهو الطاعة، وقيل هو المقبول، ومن علامة القبول أن يرجع خيراً مما كان، ولا يعاود المعاصى».

قلت: الحج المبرور: هو الحج الذى يُحدِثُ فى صاحبه تغييراً نفسيًا شاملاً؛ فيغير وجهته، ويغير تصوره وفكره ومنهاجه فى الحياة، فيتغير بذلك هدفه فى الحياة، فيتغير بذلك سلوكه، وأخلاقه، وإذا شئت فقل: إن الحج المبرور هو الذى يحدث فى صاحبه ثورة تصحيح شاملة.

أخى المسلم: تبين لك مما سبق مدى الرباط الوثيق بين الحج كعبادة محضة وبين تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق كثمرة ناتجة عن بر الحج، وكيف أنهما متلازمان ولا يمكن الفصل بينهما.

---

(١) رواه أحمد والحاكم من حديث جابر رضى الله عنه، قال الحافظ فى الفتح: وفى إسناده ضعف فلو ثبت لكان هو المتعين دون غيره.